(9) منهجية التجانس مع عصر التخصص

غالبًا ما تنطلق رؤى الفقه الدعوى من خبر يستفز الأعماق فيقود الداعية إلى التفكير الملى، فيراجع حساباته، فيكتشف مصادر خير قريبة قد ذهل عنها.

وقد شدنى وأنا أطالع حياة المسلمين الأولى: أن الصحابة زمن عثمان ﷺ جميعًا، رشحوا سعيد بن العاص ﷺ لضبط عربية القرآن عند تدوينه، بينما هو صحابى صغير، مما يدل على أن أمر المسلمين منذ القديم كان يقوم على وجود أهل الخبرة والاختصاص، والرجوع إليهم فيما اختصوا فيه.

كانوا جميعًا عربًا فصحاء، لكن برز من بينهم سعيد بن العاص الأموى كخبير لغوى.

ففى فتح البارى نقلاً عن أبى داود أن عثمان ﷺ سأل: من أَكْتَبُ الناس؟ **قالوا:** كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت. **قال :** فأى الناس أعرب؟ **وفى رواية:** أفصح؟ **قالوا:** سعيد بن العاص. **قال عثمان:** فليمل سعيد وليكتب زيد. ومن طريق سعيد بن عبد العزيز أن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص بن أمية، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله ﷺ .

قال ابن حجر:

«وقد أدرك سعيد بن العاص هذا من حياة النبى ﷺ تسع سنين. قال ابن سعد: وعدوه لذلك فى الصحابة، وحديثه عن عثمان وعائشة فى صحيح مسلم، واستعمله عثمان على الكوفة ومعاوية على المدينة، وكان من أجواد قريش وحلمائها، وكان معاوية يقول: لكل قوم كريم وكريمنا سعيد».

ويتضح أمر سعيد أكثر حين تفهم ما يعنيه مولده المتأخر، فهو صحابى صغير، وكان كبار الصحابة مازالوا يوم تدوين المصحف أحياء، ومع ذلك قدم عثمان ﷺ قوله لعلمه الواسع بلغة العرب.

قدرنا: أن نصلح الحياة فى زمن معقد

ومثل هذا الخبر كان كافيا لتحفيزى إلى إعادة مراجعة قضية التخصص فى الأداء الدعوى، فأطلت التأمل، فخرجت بقناعة أن ما مضى من تسويف قد تجاوز حد الكفاية والإشباع بكل المعايير، وأن كل أعذار التأخير قد روعيت، وأنه لابد من تكثيف الدور التخصصى فى المرحلة الحاضرة من مراحل الأداء الدعوى فى العالم أجمع، عبر التدريب فى مؤسسات المجتمع والدولة معًا، إضافة إلى مؤسساتنا، وعبر الإعلان عن النفس والمخالطة العامة.

أنا لا أعيب خطط الدعوة، ولا أتهمها، وأنا برىء من شباب ينشغلون بلوم الجيل الماضى الذى بذل ووفى وصدق وربىّ ومنح الهبات وسنّ سنن المعروف وكشف الدرب وأدى الأمانة.

أنا الوفى لمن ربّانى، والصديق المحترم لأقرانى، والمملوء أملاً بجيل الصحوة الجديد الصاعد، ولا أتهم أحدًا، ولا أنا بناكر للجميل.

كل الذى أقوله: إن الخطط الدعوية الماضية قد أدت الذى عليها، واجتازت بالدعاة المراحل، ونجحت فى تحقيق أهدافها، من نشر أفقى للدعوة، وتدوين للفكر الإسلامى الحديث، وتربية إيمانية أخلاقية لجيل واسع، وإرساء لثوابت الدعوة، وتجديد للهمم، وعناية بقضايا الأمة ونكباتها، وإحياء لروح الجهاد ونشر وعى سياسى، وبعث الثقة ومحو الإحباط، ونجدات خيرية على امتداد الساحة، وتأسيس مدارس ومساجد وميتم، ومحاربة جهل، وإماتة بدع، وترويج سنن، وحفظ موضع قدم لرجال الإسلام فى عرصات المنافسة.

أقول: ثم الدعوة الإسلامية الآن فى مرحلة جديدة، مرحلة قيادة الناس قيادة عريضة، ولذلك أنادى بخطة جديدة، وبتطوير، ورفع طبقة أخرى من البناء فوق طوابق السلف.

وعنوان هذا التطوير: الممارسة التخصصية فى ميادين الحياة جميعها، من علوم وآداب وإعلام وفنون واقتصاد وسياسة.

نعم أريد أن أفهم إخوانى دعاة الإسلام صناعة الحياة، بعد أن اكتشفت أنهم مازالوا لا يفهمونها، ولآطرنهم على ذلك أطراً، وأحصرهم فى زاوية حتى يعلنوها توبة مكفرة لذنوب الارتجال والتبسيط غير مشوبة بزهد متكلف أو تواضع ينحيهم جانبًا ويفسح المجال لصولات أعدائهم واسعا.

لسنا أول اثنين إذ تكتشف معى أيها الأخ أن الإسلام بسيط، وأن الإيمان قريب من طالبه، وأن الزهد يمدك بشعور من العزة تتكبر به على جميع أنماط الحياة الجاهلية ومخادعاتها ومتاع الدنيا الزائل.

قد أرشدنى ابن المسيب قبلك، ثم الثورى، ثم ابن حنبل، وعلمونى بساطة الإسلام وسماحة الإيمان، فأنا من بعدهم مؤمن بأن هذا الدين القيم إنما هو دين الفطرة، ومن لاذ بالعفاف فقد اكتفى، وهو سيد الزمان والمكان، وفوق جميع عبيد الشهوات.

لكن هذا المؤمن هو المؤمن الفرد الذى تمنحه قوة الإيمان عصمة من الذوبان فى المحيط الجاهلى، فيعيش مستعليًا مستقلاً ثابتًا راسخًا، لا يأبه لمغريات أو محن.

إنما أنا أريد مؤمنا آخر، هو أخو هذا المؤمن فى مناقبه هذه، لكنه المسيطر على زمام الحياة، يقودها، ويعلم الناس من مركز السلطة ومنبع القوة علم الإيمان، وهذه الحياة هى المعقدة، ولذلك كانت خطته لاعتلائها معقدة غير بسيطة ولا مرتجلة ولا سطحية، وليس الإيمان هو المعقد.

مع الناس ... فى جلبة أسواقهم نتربى

الشرط الضرورى لولادة هذه التخصصات تهيئة البيئة الملائمة، وهذه البيئة تتمثل فى ممارسة عملية لهذا التخصص فى المحيط العام وليس فى المحيط الدعوى الخاص، إذ هناك السعة والمكان الرحب والعلاقات الكثيفة مع جميع الناس وكل التوجهات، بما تتيح من دوافع تنافسية وتحديات متواصلة تضع الداعية فى هيئة التحفز الدائم والمحاولة المستمرة.

وهذا يعنى لزوم الخروج إلى حالة العلانية، أى أن يعلن الداعية عن نفسه كمسلم ملتزم، وأن يجهر بآرائه فى قضايا المجال الذى تخصص فيه وفى غيرها، إن أجاد ذلك أيضًا، ولا يلزم أن يذكر صفته كعضو فى جماعة، لكن تخمينات المتعاملين معه قد تقترب بهم من كشف هويته، ولا أجد حرجا فى ذلك، وأرى أن يتقبل هذه الاحتمالات لوفور المصالح، بل حتى المخابرات الحكومية قد تكتشف معدنه، ولا أجد حرجًا ثانيًا فى ذلك، إذ غاية ما سيكون منها أن تمنعه من تولي الوظائف العامة ذات التأثير، وفى الوزارات السيادية بخاصة، وقد ذهب عهد المحن الطويلة والسجون الرهيبة، وساعدت التطورات المدنية ومظاهر الديمقراطية على

هذا الذهاب، وما ثم إلا محن محدودة ندفعها ثمنًا لنشاطنا وممارستنا التخصصية، أو مضايقات فى بلاد قليلة نستثنيها من تخطيطنا التطورى، هذا إن لزم الأمر، وقد أصبح الإرهاب الحكومى سلاحًا ذا حدين، لأن حرمان الداعية من حقوقه السياسية والمدنية سيوجد حالة مستمرة من التوتر الاجتماعى والسياسى يستثمر فى المآل لصالح الدعوة وتكون الحكومة هى الخاسرة، بما مهدت من أسباب تغييرها، وكم من حاكم كان ضحية خطط خاطئة مارستها مخابراته عن ضيق نظر واتباع لأساليب بالية من الكبت تجاوزها الزمن، والامتزاج العالمى المتزايد، والإعلام العالمى الذى دخل كل بيت، وعدوى الحرية، ودعوات حفظ حقوق الإنسان، كلها عوامل تعمل لصالحنا كدعاة وليس لصالح الحكومات.

وانطلاقا من هذه الحقائق، أو على الأقل: عبر هذا التحليل الذى أنا به مقتنع: أصبحت أحمل عقيدة راسخة بأن أطوار العمل السرى المتكتم قد استحالت ضررًا بعد أن كانت ضرورة، وأن المرحلة التى فرضتها قد ولت وانتهت، وأننا نعيش مرحلة جديدة يليق لها الإعلان عن النفس، والعمل الصريح، وكشف العناصر، ورفع الحواجز.

أنا الآن حين أدقق حساباتنا الماضية وأراجع أحوالنا: أرى أن السرية قد ولدت فينا الانكفاء عن النفس، والعزلة عن الناس، والرضا بالعيش فى مجتمع صغير جدًّا صنعناه لأنفسنا، والوحشة من مخالطة المجتمع الكبير الواسع الذى يحتوى مجارى الحياة العديدة، وبسبب طول مدة هذا الانكفاء الذى استساغته نفوسنا والسجن الاختيارى الذى لجأنا إليه قتلت فينا قابلية الإبداع وضمرت الروح الاجتهادية وتقلصت النزعة القيادية، ولا ينمو تخصص بدون هذه اللوازم، وبذلك أصبحنا نرى الداعية يراوح فى مكانه سنوات طويلة بلا تطور فى علومه وخبراته وشخصيته، ويفضل العيش فى الظل والمؤخرة.

يجب وضع حد لهذا النمط الخاطئ من التعامل مع الحياة وحركتها.

يلزمنا اقتحام لمجتمعات الناس، وأن نرشح أنفسنا لقيادتهم، أو على الأقل كمرحلة أولى: أن نقترب منهم لنستفيد من قابلياتهم وعلومهم وأموالهم وإسالتها إلى وادى الإسلام، ومثل هذه المهمة تقتضى أن نتجاوز وجودنا فى جمعية إسلامية، ومجلة إسلامية، ومدرسة إسلامية، وشركة إسلامية، وجامعات إسلامية، وفى باقى سلسلة المؤسسات الإسلامية التى حصرنا أنفسنا فيها.

وجود هذه السلسلة مهم جدًّا ولا أنكر ذلك، لأنها تمثل الوجود الإسلامى المستقل، وتشخص كمثال على ما نريد، وهى التى تضمن عدم ذوبان الدعوة فى المحيط، وإليها يفىء الدعاة عند التعب وهبوط الإيمان، فتتجدد العزائم وتتنقى الدماء.

لكن لا نحصر أنفسنا فى حدود هذه المؤسسات الإسلامية، بل نوزع عناصرنا ليكونوا أعضاء فى الجمعيات الأخرى والنوادى والنقابات، ومحررين فى الصحف الأخرى، ومدرسين فى الجامعات العلمانية، وفى المدارس الخاصة التى ينشؤها غيرنا، وأن نشارك فى التجارات من ليس داعية من أجل أن نكون أعضاء فى مجالس إدارات الشركات التى يكون لبعضنا فيها حصة، وأن يعمل بعضنا فى البنوك الربوية من أجل حيازة خبرتها والتدخل فى صرف بعض أموالها بما يسهل تجارات الدعاة، وثم أن نرسل بعضًا آخر للدخول فى الأحزاب الحكومية والأحزاب غير الإلحادية من أجل وصولهم بعد سنوات إلى مراكز قيادية فى هذه الأحزاب وتوجيهها لصالح الإسلام وبما يقلل الشر ويزيد الخير.

ولى من الناحية الشرعية إفتاء بتجويز هذه المخالطة الربوية والحزبية للداعية المسلم إذا أتاها بنية الإصلاح ومن خلال خطة جماعية وليس لتحصيل منافع شخصية، وقد تابعت فى هذا الإفتاء بالحل غيرى، وليس هذا هو موطن التفصيل الفقهى فى هذا الباب، وإنما شرحته فى كتابى «أصول الاجتهاد فى فقه الدعوة».

ويستغرب بعض الدعاة من مثل هذا الكلام، ويرون أن التأثير الإسلامى الذى يبتغيه الدعاة الذين يعملون ضمن مؤسسات غير إسلامية سيكون ضئيلاً محدودا. ولذلك هم فى شك من صواب هذا التخطيط.

وظاهر الأمر يمنحهم تأييدًا لظنونهم، إذ إن الانطلاق الإيمانى المستقل أقرب إلى التأثير فى المقابل، والهوية الواضحة تساعد على تفهيم القول وعلى ربط السامع بالقائل، وعلى أنواع من الامتزاج المعنوى والاسترواح النفسى، وهذه فوائد عظيمة ينبغى أن لا يغفل عنها أى داعية حين يمارس مهمته، وأنا للوضوح مؤيد، وللاستقلال أدعو، بل كان مبتدأ كلامى هو وجوب الإعلان الصريح عن أنفسنا، وبدرت منى حماسة نحو ذلك حدت بالبعض أن ينصحنى بالإبطاء وبترجيح الحقائق الواقعية على المثاليات العائمة،وأنا اعترف بأن هذا النوع من

الحماسة وسرعة الاعتناق للخواطر البراقة هو نقطة ضعف رئيسة فى تكوينى، ولكنى مع ذلك أرى أن فى كثافة انتماء عناصرنا إلى الموسسات غير الإسلامية فوائد باطنة عديدة تزيد على ما فى ظاهر الأمر من مصلحة التأثير، ذلك أن السعى الدعوى لا يقتصر على محاولة قذف أفكارنا وآرائنا فى عقول وقلوب أناس جدد نحاول تحصيل استجاباتهم لنا، لتوسيع قاعدتنا وعدد عناصرنا، وإنما يتعدى هذا السعى الدعوى ذلك إلى أهداف أخرى كلها تصب فى النهاية فى صالح الدعوة.

* **منها:** تنمية بقايا الخير لدى رجال المؤسسات الأخرى وفى أنظمتها وخططها وأهدافها، فإن الناس لم تغلق على سوء، وإنما هو تخليط، فهناك صواب يمازج الأخطاء، وساعات إفاقة أثناء أيام السكرة، وبقايا فطرة وإنصاف، ومن الممكن للداعية أن يستثمر هذه الإيجابيات من بين ركام السلبيات، وتحصيل المردود من هذه العملية بطىء، لكنه يتعاظم تدريجيًّا ليكون عاملاً مساعدًا للعمل الدعوى.

* **ومنها:** عملية معاكسة فى كبت الشر من خلال هذه المخالطة، والتخذيل لأهل السوء عن تنفيذ ما يرومون فعله، وحصرهم فى زوايا ضيقة بحسب الاستطاعة، وتأليب الأخيار ضدهم، وتبدأ سلسلة هذا الكبت بمواعظ للأشرار، وزجر، وتخويف من الله، وتنتهى بقرارات مانعة تستصدرها مجالس الإدارت، وبين هذن الحدين الأولى والنهائى أنواع من الأعمال الكابتة والجدل بالتى هى أحسن، والتسويف والفضح فى فنون عديدة.

* **ومنها:** توجيه مجموعة الحقوق الدستورية والقانونية والإدارية والمالية التى تتمتع بها هذه المؤسسات بما يلتقى مع الهدف الدعوى فى الإصلاح الاجتماعى أو التأصيل الثقافى أو التقنين الشرعى أو اتخاذ موقف تجاه قضايا الأمة الكبيرة أو نجدة الأماكن المنكوبة، وما لا تستفيد منه الدعوة فى نفس البلد قد تستفيد منه الدعوة فى بلد آخر، أى نقوم بتصدير هذه الإيجابيات، وبالمقابل قد نستورد إيجابيات مؤسسات أخرى فى غير بلدنا.

هذا إضافة إلى أن هذه المنتديات تتيح للداعية أن يحاور وينشر فكره وأن ينمى شخصيته العملية، ويكتسب الخبرات الدقيقة منها، عبر العمل لها أو اقتباسًا من رجالها المجربين، مع ما قد يقترن بهذا الانتشار وما يتيحه من مخالطة من اكتشاف أسرار، ورصد فرص، ونجاح فى

شفاعات، والتمتع بغطاء أمنى، وتحرك رسمى، وبروز إعلامى، وجمع أموال، وتحصيل امتيازات ، وترويج تجارات، وأنواع لا حصر لها من المنافع.

وغاية هذا الإسهاب: تنبيه الدعاة إلى أن العمل الدعوى أوسع من أن نحصره فى تجميع عناصر جديدة وضمها إلى صفوف الدعوة؛ إذ هو قائمة طويلة من أنواع كثيرة من أشكال النشاط والمصالح والاحتياطات الوقائية، وأن الوصول إلى الأهداف الإسلامية لا يمكن عبر جهود الدعاة فقط، وإنما تحققه أيضا إضافات الأصدقاء والحلفاء والمتعاونين، بل ويعيننا أيضا: نجاحنا فى تحييد آخرين، وما هذه إلا عبارات موجزة تصلح كعناوين فقط لفن عريض من الأساليب والمداخل والمخارج والمناورات والالتفافات والتحالفات والعزل والحصر، وينتظم كل ذلك تنسيق وتكامل فى الأدوار.

ويتخوف دعاة آخرون من ذوبان عناصرنا العاملة فى المؤسسات غير الإسلامية، ومن ضعف روحى وعبادى يعتريها بسبب تأثير المحيط، قد يؤثر فى النهاية على مدى الولاء.

وهذا اعتراض جيد، والذوبان مرئى، لكننا لا نصف هذه الخطط لدعوات ناشئة جديدة لازالت تحبو ضمن مرحلة التأسيس الأولى، مما يليق لها عزل عناصرها عن المحيط كليًّا أو جزئيًّا لتلقينهم ثوابت الدعوة وفكرها، ولتزكية قلوبهم وتدريبهم على التخلق بمكارم الأخلاق، وإنما نحن نخاطب دعوة تقدم عمرها وطال، نريد أن ننتشلها من ترهل يغزوها، وبطالة قد تتفشى فيها، وورم تكاثرى لا يوازيه تطوير نوعى، وجمود على أساليب عتيقة تجاوزها الزمن، وتخلف عن استفادة من تقدم علمى عالمى مازال يقفز كل سنة إلى مستوى عال جديد عبر اختراع طريف.

إن من يتساقط بسبب الترهل والتبطل أكثر عددا ممن يضعف بسبب المخالطة، ومن يهجر الصفوف اعتراضًا على رجعية الأساليب أكثر من ذلك.

لكننا مع ذلك لا نسلم تمامًا بمنطق الذوبان هذا، لأن الذى نريده ليس هو إرسال هؤلاء الدعاة إلى قطاعات المجتمع الفسيح فى انتشار واسع دونما تمهيد ووقاية وإدامة ورقابة، وإنما هى خطة متكاملة، تبدأ بتربية نفسية، وشحنات معنوية، وتمر بتوعية وتفقيه وتدريب، وبأوبات شهرية إلى المثابات الدعوية للتزود وتجديد الهم وغسل القلوب، وبإمداد المنتشرين

بشريط اتصال عبر الإنترنت، ثم شد هذه العناصر الدائبة فى مساراتها ومداراتها البعيدة عن المركز إلى قيادات دعوية ظاهرة معلنة تتحدث لها ومعها، فيكون هناك تبادل روحى يرمم التلف ويرطب الجفاف، ووجود هذه الزعامات الدعوية العلنية شرط أساس لنجاح هذا التخطيط.

ذهب زمن البدائية

لكن لابد أن يتطور الدعاة مدنيًّا ويواكبوا الأسباب التكنولوجية المتجددة السريعة التطور إذا أرادوا أن ينجحوا فى خطة المخالطة الاجتماعية هذه.

لقد نقل العلم الحديث الدعوة الإسلامية إلى موقف ذى حدين. تنظر الواجب المتعين على الدعاة فى تطوير أساليبهم وأدواتهم فتستكبره حتى لتظن ذلك معضلة، ثم تنظر فى عين الوقت المتاح والفوائد التى يمكن أن نجنيها من ذلك فترى جانبًا إيجابيًّا يغريك بتطوير عناصرك وأدواتك بما يوافق آخر المخترعات.

إلا أن الداعية اليقظ لا يحل له أن يبقى حائرًا مترددًا بين شعور الإعضال وبسمة التفاؤل إزاء هذا المفترق، وإنما عليه أن يحسم الأمر سريعًا، وأن يقبل التحدى ويشرع فى التحديث ومواكبة الاكتشافات التى أصبحت تتوسع من موسم إلى موسم.

وأهم ما فى هذا المجال: استخدام الكمبيوتر، ليس كآلة وبرامج حسابية وإدارية فحسب، فإن هذا المقدار قد تجاوزه الناس، كل الناس، حتى أن مكتبًا تجاريًّا فى غابات أفريقيا، ليصدر مراسلاته ويدير شئونه بواسطة الكمبيوتر، ولكن أن نستخدم ثورة المعلومات والإنترنت ومزايا التحاور المباشر عبر الشبكات والبث البريدى، إلى درجة إعلام أصحابك ومن تريد مواصلة تفاهمك معهم بخلجات صدرك وخواطرك اليومية عن طريق مكانك فى الإنترنت، وبأحاسيسك وتذكيراتك وتقارير عن آخر الأحداث فيما حولك وتحليلك لأخبار تهمك وتهمهم.

نقطة التعقيد هنا: أنك إن لم تتطور فإن الضرر لا يقتصر على أنك تخليت عن تسهيلات عديدة الأنواع فحسب، وإنما ستفقد الجيل الجديد الصاعد الذى أصبح يتربى فى المدرسة وعبر مخالطته أفراده بعضهم لبعض على هذا النمط من الحياة الإلكترونية، فإن لم تكن

أساليبك ومحادثتك له ومواعظك إلكترونية فإنه سوف يعرض عنك ويكون بطيئًا فى الامتثال لك، وسيؤثر فيه غيرك، وما يدريك ما هذا الغير، واحتمال أن يكون يهوديًّا أو كافرًا أو ماجنًا أو مخربًا أو مروجًا لعقده النفسية، مخالفًا للفطرة منتقمًا من جميع الحياة الإنسانية.

إن لم تتحدث مع الجيل الإسلامى الصاعد بنفس اللغة العصرية التى يستخدمها فسيقاطعك وينشغل عنك.

قل ما تشاء من أن الحياة الإيمانية تتطلب البساطة والسكون وهدوء المسجد، وأنا معك، وأنت الصادق، لكن ما الحل وقد أصبح العالم قرية واحدة،ولسانًا واحدا، وقنوات متشابكة؟ وما الحل والوجوه رانية إلى الشاشات منذ أيام طفولتها المبكرة؟

أقسم بالله إن التطور واجب يا من لا تقنع إلا بقسم.

أما من أين تأتى بالمال، فهذه ليست مشكلتى، إنما هى مشكلتك إذ فرطت فى تكوين طبقة رجال الأعمال الدعاة وعليك حلها، وطريق ذلك التوبة.

امتيازنا النوعى يرشحنا لقيادة الناس

بل الأمر أبعد من هذا، فإننا إن تخصصنا بالمقدار الذى نوازى به الناس ما نكاد أن نثق بأننا فعلا شىء كبير، إذ غاية ما هنالك أننا سنكون لهم أقرانًا ونساويهم، ونكون قد اجتزنا نقطة التخلف، لكننا نريد قيادة الناس، ولن تكون قيادة الناس إلا بالامتياز والتفوق التخصصى الكمى والنوعى.

لذلك أخى الداعية: أريد لك التميز، وأنتظر منك الإبداع، وأن تترك بصماتك الواضحة إذ أنت سائر.

قل لى: ماذا تعنى كلمة تسمعها عن رسائل كتبها غاندى، حين يقول باحث: إنها رسائل كتبت بلغة راقية!!

أنا الآن لا أدعوك إلى نظر مكانته القيادية وزعامته لقومه وثقافته، وإنما أدعوك فقط إلى رؤية ما عضد ذلك من لغة إنجليزية فوق المستوى العادى، وانظر ماذا يعنى ذلك، ولم لا يكون بعض الدعاة مثله مع ما أتيح لهم من سكنى فى الغرب طويلة.

وأنا أستطيع أن أضرب لك ألف مثال آخر لرجال تميزوا بفصاحة، أو بعلم، أو باختراع، أو بنظرية ابتدعوها ورموز أضافوها إلى المفاهيم الإنسانية، ثم لرجال صبروا على لأواء، ولعصاميين شقوا طريقهم بأظافرهم، بل مثل هؤلاء ألوف فى كل أمة، وهم عشرات ألوف على امتداد الأرض، وملايين إذا ضرب فى التاريخ النظر وأبصر النبلاء على تعاقب الأجيال، لكنى أحب الآن تجاوز هذا النمط الإحصائى إلى الأصل الإنتاجى لهؤلاء، أى إلى قراءة شمولية لظاهرة «تنوع المؤثرات الحيوية»، وانفتاحها أمام كل البشر، وبالتالى: انفتاحها أمام دعاة الإسلام أيضًا، كنتيجة حتمية، إلا قليلاً مما يمنعه حاكم ظالم، أو ظرف استثنائى.

انظر صنعة الفكر المحض كمثل، والتى لا يستطيع أعتى الظلمة تعتيم لمعانها: كم أنتجت من فلسفات، وتأملات رمزية، ومراقبات اجتماعية، وفهم لمسار التاريخ والتبدلات الحضارية.

وانظر عشق الحرية كمثل آخر: كم ساق قلوبا إلى البذل، وأفواهًا إلى نطق بحكمة سائرة وشعر محرّك، وكم قاد جموعًا إلى موقف ثورى رافض وعناد مستعل، وتقدم جرىء.

ومعانى القلب الرقيق: من زهد، وقناعة، وحلم، ورحمة، وسماحة ومثاليات، ونهضات من الجد، ونبرات من الصدق: كم فتحت من مغاليق وربطت من أفئدة، ووحدت بين نفوس، وجمعت أتباعًا، ونظمت أشكالاً، واستفرغت وسع أولى قوة أو ذكاء ليخدموا قضية معينة!

وانطباعات الأحداث فى داخليات الأنفس، وردود الفعل لهزة عنيفة أو لمسة خفيفة: كم رفعت رءوس المصورين نحو أعلى، فاستحال الانطباع إلى رمز فحرك الأصابع بضربات ذات ألوان فإذا الناس أمام لوحة ناطقة، والفنان صامت! أو حركت الألسن بأبيات ذات أوزان، فرجعتها أصوات بألحان، فرجع الوجل جريئًا!

وجفلات أصحاب الفطر النقية من ترديات بشر مثلهم سكرت أبصارهم فانتكست عقولهم، فعبدوا أصنامًا وذهلوا عن شواهد تدل على الخالق الواحد، فطفق المؤمنون يؤذنون، ويجتازون المفاوز، والغابات، والثلوج، والبحار، والجبال، مبشرين ومنذرين، فحولوا شعوبًا عن وثنية أركستها، أو تركوا فى كل قوم من أنفسهم شهودًا على سخافة الشرك، حتى إنى رأيت فى متحف فنوم بنه عاصمة كمبوديا شاهد قبر عتيق تعلوه البسملة لمسلم قديم يتوسط أصنام بوذا، يشهد ببطلانها.

ودلالات الوثائق المتراكمة، والإحصاءات المتعاقبة كم استلها من باحث، فنثرها بين يديه وطفق يقارن، ويركّب ويجمع الشظية إلى أصلها، ويربط اللاحق بسابق، ويعطف الجوانب على مركز، ويظل يكرر ذلك بلا مل، فتتوضح له رؤية مستقبلية عبر الأوصاف الواقعية، فيشير على رؤسائه بخطة، فيسبقون إلى احتلال الغد، إذ المرتجل يدور فى المتاهة!

ومناقلات المال بين الأيادى، التى تمكن أناسًا، وتحجب آخرين، كم راقبها من لامح يفهم سر القوة، فصمم على أن يكون ثريًّا، يبيع المادة، ليشترى الأرواح، ويأسر، ويُطوق، ويُحاصر، ويغرى، ويقرّب، ويُسكت، وينطق، ويجمع حصاد العقول، وخفايا الزوايا، فيستوى مسيطرا، وما فى يده سلاح، بل تلعب أصابعه بمفتاح!

وكانت خالتى أم عبد الله -رحمها الله- تغسل ملابس العائلة فى قديم الزمان بيدها، قبل أن توجد مكائن الغسيل، حتى تفطرت كفوفها من أثر المواد الكاوية التى فى الصابون تلك الأيام، فشكت إلى ظريف من الأقارب فقير مخشوشن يقال له: «هديب»، ففحص كفها فتأوه طويلاً، وأظهر الحسرات، وبعث الزفرات، ثم قال ملاطفًا: كفك يحتاج إلى دهن الفلوس ليبرأ.

فأخذت المسكينة كلامه مأخذ الجد، وذهبت إلى سوق «الشورجة» الشهير ببغداد تسأل العطارين عن دهن الفلوس، فنفى عدد منهم علمهم بمثل هذا الدهن.

قالت لنا: حتى أتيت العاشر، فقال لى: يا خالة، لأى مرض وصفوه لك؟ فأرته كفها المتشققة، وشكت له الألم، فضحك، ونصحها بالرجوع إلى بيتها، ونبهها إلى فكاهة انطلت عليها، وأن «هديبًا» إنما أرشدها إلى معالجة فقرها بالمال.

وفى معترك الحياة اليوم، إذ تتقدم دعوة الإسلام فى طريقها فقيرة مسكينة بلا درهم ولا دينار، فلا تكاد تصل، مع أنها تمتلك الرجال والعلوم: لن تنفعها غير وصفة «هديب» الحكيم.

إنه دهن الفلوس ... وكفى.

نعم ... إنها الكفوف فى الكفوف، وتشهد الملائكة وفاء العهود، لكنها الكفوف المتشققة الخلية، والأساليب البالية، وثم تكبير يزاحمه تأوّه، وتفكير ينقصه تفوّه، وأولى للدعوة أن تلجأ إلى حكمة الظرفاء، تفسر بها زهد فضيل وجنيد.

ولست أزعم أن ليس فى الدعاة رجال يتقنون هذه الأنواع من المؤثرات الحيوية العديدة، بل نحن نفخر أن فينا أهل فكر، ومن بذل دمه القانى طلبًا للحرية، وفينا زاهد وشاعر وفنان، ووعاظ، وتجار، وباحثون، ولكنى أريد منهجا تربويًّا شاملاً لتخريج أفواج من مثل هؤلاء ليتواجدوا بكثافة كافية للتأثير فى مجرى الحياة وإدارة التنافس السلمى العلمى الأدبى الفنى الثقافى.

أنا أزعم أن هذا المنطلق التخصصى هو الركن الأساسى اليوم فى محاولة الاستدراك، والتى يجب أن تكون ذات بعد حضارى شمولى يتجاوز الوسائل القصيرة، والاهتمامات السطحية، وتسهيلات المستعجلين فى تصوراتهم الساذجة للأمور، وظنونهم الطفولية بأن امتلاك زمام الحياة تتكفل به رصاصة بلهاء يطلقها الذين لا يفهمون حركة الحياة، وأبعاد التنافس وأوصاف الفطر، وآفاق الحضارة.

وهذا النمط من التبسيط هو المسئول عن طاقات مازالت تهدر، وأحزان أتلفت النفوس، وتهورات ألبت الخصم، وأجفلت الصديق، وخذلت الحليف، وأسكتت الوسيط.
أمورنا أبعد من ذلك أيها الإخوة، لأن حقائق الحياة أبعد.

القيادة الحانية ترعى الهمم الرانية

ومن بلوغنا فى التأمل والتحليل مبلغًا أبعد: ندرك أن هذه الوصفات للتعامل مع تعقيد الحياة المرتبطة بقضية التخصص ثم بمنهج الإبداع ارتباطًا وثيقًا: لها ارتباط آخر قوى بالقضية القيادية، ومعضلة تحديد مفهومها وآفاق عملها ومعادنها ونمط أدائها، لأن المتخصص محتاج إلى أن ترعاه قيادة واعية، وتتفهم دوره، وتدفعه إلى الأمام دومًا، وتؤمن بالذى يؤمن به من قناعات وأساليب، ثم المتخصص من باب آخر يحتاج أن نسهم له سهمًا فى العملية القيادية الجماعية، بحيث نسند إليه شيئًا من المسئولية، لتكون معاناته معاناة حقيقية عميقة، هى معاناة المؤمن المحمل بالحمل الثقيل الذى يجب أن يسلمه كأمانة إلى مكان آخر أو مؤمن لاحق آخر، فيمشى يرزح تحت الثقل، ويشعر بالوطأة، ويخطو بجهد، ولا يكون مجرد الناظر إلى ساحة المعاناة يتعرف أخبارها من دون أن يذوقها.

لذلك فإن بداية مشروع التخصص الدعوى الكبير تبدأ بتصحيح مفهومنا عن القيادة،

وأن نتجاوز به مجرد الإداريات، ثم فى إتاحة عقلية قيادية عريضة واسعة تنهى الأطوار الفردية وما قاربها.

بعض القادة يقلص المعنى القيادى الواسع الرفيع تقليصًا يحيل به نفسه إلى مثل مدير يحاسب موظفيه ويضبطهم بقوة القانون ورهبة السلطة، فى نمط جاف من التعامل بالظواهر وتحصيل الانقياد القسرى أو المصلحى.

وليست القيادة كذلك، كل القيادة فى جميع نواحى الحياة، وبخاصة القيادة الدعوية.

القيادة الدعوية نمط من الأداء العاطفى قبل أن تكون أى شىء آخر، والقائد المسلم يتعامل مع القلوب، لا الجوارح، يمدها بمعانى الإيمان، ويقوى فيها جوانبها الإيجابية، ويدارى السلب إلى أن يقلعه، ثم هو يتعامل مع العقول، يطرح لها الفكرة الطارفة، ويسبق إلى تحليل مجموعة الأحداث المؤثرة فى الموقف الدعوى، فيقترح مدخل صدق.

القيادى يبذر فى قلوب أصحابه رغبة التقدم إلى الأمام، وفعل شىء من لا شىء، والتجاوز اليومى للنقطة التى وضعها فيها الأمس، وهذا يتطلب روح التحدى والتحرك الهاجم والاندفاع المتواصل واستثمار الفوز الأول نحو فوز ثان.

والبعض يحسب هذه التعابير من إنشاء الأقلام وتفنن اللسان، لأنه يستصعب هذا الشكل المقتضى لليقظة الدائمة والمبادأة المستمرة.

وعلى نقصه يقيس هذا المستصعب، لأن الإيمان والمواهب الربانية الرحمانية قريبة، موجودة، مرئية، حالة فى عالم الواقع، لكنها مغلفة بغلاف يقتضى فكه، لأنها هدية، وكذلك الهدايا تصان.

الأمر -كما علمتنا التجارب وسياق الحياة- متعلق بتوزيع قدرى ترك الله الناس عليه، إذ وزع بينهم الأخلاق مثل توزيع الأرزاق، وجعلهم مراتب فى الهمم والدأب والصبر والشجاعة، وبعضهم فوق بعض فى الثقة بالنفس والعزائم والحساسية وردود الفعل والمنافسة والتحدى، والنوايا متفاوتة، والذكاء مختلف.

والدعاة هم من جملة هؤلاء الناس، فيهم وفيهم، وأقدارهم شتى، رغم أن نسبهم فى الإيمان واحد.

وهنا يكون اعتراضنا على من يستصعب ويقول: كيف أضمن أن يكون القيادى مؤجج العاطفة حاد العقل؟

هنا يسوغ لنا أن نسأل: لماذا لا يتاح المجال لأصحاب الصفات العالية أن يتصدروا؟

ولماذا لا أدع الذكى المبتكر المتفائل المستبشر يقود، فتسرى عدواه الخيرية إلى أتباعه، فإذا هم فى اهتمام وتطلع وانجذاب نحو المعالى؟

إن القيادة تبدأ من هاهنا، أى قيادة، إسلامية أم جاهلية، فإن انتزاع الألمعى الجسور ووضعه فى المقدمة أو وضعه هو لنفسه فى المقدمة، وتصديه وترشيحه لنفسه، هو بداية القصة، وما بعدها فصول تابعة، وليست القيادة الإسلامية شيئًا مغايرًا، سوى أنها تختار هذا الألمعى مسلمًا له شعبة واحدة من الإيمان اسمها: الإخلاص وصدق التوجه وصفاء النية.

كل ما بعد هذا الإيمان الأولى المحدود يمكن اصطناعه وإيجاده والتربية عليه، إما من خلال تربية منهجية هادفة، أو من خلال المعاناة والتجريب والتفاعل الذاتى، أو من انعكاسات المحيط.

فالإيمان له شعب كثيرة يمكن أن تنمو إذا توفرت النية الصادقة، والموعظة لها دورها المؤكد، ورؤية الأسوة الحسنة تحمل الرائى على المتابعة، ونظافة المحيط تؤدى إلى عفاف وفطم، وعلى المدارج سابقون يضمنهم القدر، لهم يد ممدودة إلى خلف، يعينون اللاحق، ليتصل سند الصعود.

والعلم بالتعلم، والمطالعة، ومشافهة العلماء، والسعى إلى حلقاتهم، وتعمد الحوار، واستقصاء الأنباء، والتدسس والتجسس، وما يحتاجه القيادى من ثقافة عامة زائدة على المقدار الشرعى أصبحت تتكفل به الصحف وبرامج التليفزيون العالمية إذا أحسن الاختيار.

ثم مرور الأيام وتقلب الأحوال ومراقبة الساحة السياسية تزيد القيادى خبرة، ويتزود منها بمعان لا تحويها الكتب ولا التلقينات، فإن كان مثلنا ساذجًا سليم الفطرة مكتفيًا بمد يده إلى الأغنياء يسأل الزكاة لدعوته، وقد أكثر مدّها، وأكثر إرجاعه خائبا يتلوى، وشووا قلبه على نار الوعود، حتى تفجرت دمعته، فتاب توبة نصوحا، وطفق يشجع الزهاد على ممارسة التجارة الحلال وحيازة نصيب من الدراهم المتداولة: فقد اكتمل له الوعى، وأصبح قياديًّا حقًّا.

والمقصود من هذا الاستعراض تقرير أهمية الاختيار منذ البداية، بتقديم الذكى الشجاع إذا آنسنا منه صفاء التوجه، حتى لو كان قليل العلم، قليل التعبد، ليس بعميق الخبرة، فإن الأيام والمناهج والبيئة والعدوى والمعاناة كل ذلك سيطوره ويمده بمؤهلات التخصص.

ومقتضى ذلك أن لا تعتمد اختياراتنا على وجاهات وأعمار وشهادات ومظاهر وبقايا أعراف اجتماعية خاطئة، إذ ليست هذه الصفات غير مرجحات ترجح البعض على بعض عند تقارب الذكاء وقوة الشخصية، أو هى عوامل ترجيح فى الظروف الاستثنائية سدًّا لذريعة من ذرائع الفتن أو المحن.

إن المشكلة الكبرى التى تصادف الدعوة فى كل مكان فى أمر الاختيار وتصدير الصدور لا تكمن فى الاختيار الداخلى داخل البناء التنظيمى لطبقات القياديين، إذ إننا فى الأغلب نستطيع التحكم بذلك والوصول إلى معادلة هى فى مجملها محققة لمقاصد الفقه الصحيح فى التأمير واستكفاء الأمناء، والخطأ موجود لكنه قليل، لكن المعضلة تظهر بصورة متكررة عند تقديمنا لعناصرنا الدعوية للمشاركة فى انتخابات برلمانية أو فى عضوية وزارة أو وظائف حكومية عليا، بل تظهر حتى فى ترشيحنا لعناصرنا فى مجالس النقابات والنوادى، بل حتى فى إدارة جمعياتنا الإسلامية، إذ نضطر فى هذه المجالات إلى مراعاة مفاهيم الناس وأذواقهم ومعاييرهم التى تختلف كثيرًا عن موازين فقه الدعوة، وللناس تعلق بالمظاهر والأنساب، ولهم مراعاة لمصالحهم الدنيوية، ويستأسرون لصاحب اللسان والهيبة والنفوذ، ومن ثم تميل الاختيارات الدعوية إلى تقديم من سيرضى عنه الناس وإن كان غيره أرجح منه عندنا، وتكون موازيننا مغايرة لموازين التأمير الداخلى.

لأول وهلة ربما لا يجد الداعية حرجًا فى ذلك، لأن الحكمة ترشحنا إلى أن نخاطب الناس على قدر عقولهم، لكن الحرج يبدأ بالبروز إذا طال أمد هذا الازدواج، بحيث تفهم الطبقة الظاهرية من الدعاة أنها أولى من طبقة القيادة التنظيمية باتخاذ القرار ورسم الخطط وتحديد المستقبل الدعوى، بل قد يبرز غلو فى ذلك ينادى باحتكار هذا الحق، فتتعاكس الموازين، ويصطدم مفاد التجارب العملية والفقه الدعوى ونمط التأصيل ومنهج التربية الريادية والنظر الإستراتيجى البعيد مع رغبات الاستعجال والحلول الوسط والأهداف الموسمية

وخطط التعايش الائتلافى، فتقترب الدعوة من الانقسام، أو تؤمن وحدتها بخطط توفيقية، وبرجال من التوفيقيين، ويتوارى التشخيص الصحيح والوعى الفصيح.

وقد يرد الضرر فى صورة أخرى ملموسة فى الدعوات التى تسرف فى النزول إلى الطبقات الناشئة عند إجراء الانتخابات الداخلية، بحيث يكون تصويت الجدد أكثف من تصويت القدماء أهل التجربة والمعاناة والدراية بما فى الزوايا وبتاريخ العمل والدروس المستفادة من تعاقب المراحل، وبذلك تأتى النتائج أحيانًا غاية فى الغرابة، وأبعد عن منطوق الفقه، فيتصدر ضعفاء، وتراعى موازين يهدرها عرف المؤمنين.

والحل لكل هذه المشاكل والانحراف عن سواء الفقه الموروث يكمن فى تكثيف «فقه الدعوة»، تأليفا وترويجًا بحيث ننزله لإخواننا الدعاة بكثافة عن طريق التوسع فى استنباط الدروس المستفادة من تاريخنا كأمة وكدعوة، وتدوين التجارب،، وتمكين المجتهدين منا من «حق الاجتهاد» والتساؤل والاعتراض والنقد والتصويب والتخطئة، ووضع حد ينهى «التقليد» والجمود والحياء من كشف عيب ومناقشة معيب.

والمظنون أن «منهجية التربية الريادية» لو وضعت فى التطبيق كنظرية معرف بها، تحدد الإطار العام لمفهوم الصنعة القيادية، ثم لو أردفت باقتراحات «معًا نتطور» كخطوات عملية تفصيلية لهذه المنهجية، مع اقتباس روح «صناعة الحياة» فى تأكيد الدور الشخصى التخصصى فى الأداء والدور الجماعى فى التنسيق وجمع الجهود وتكثيفها، فإن شطرًا من الاستدراك على معضلتنا القيادية يكون قد حصل وتوفر.

لكن هذا الاستدراك يحتاج إلى «مفاصل» رئيسة تقوم بدور الجمع والتوزيع، والالتقاط والبث، وتأويل التنظير فى تفاصيله، وتطبيق المفردات عمليًّا بشكل نموذجى.

وهذه المفاصل هى «مراكز البحوث والتطوير» التى يجب أن تنتظمها خُطة تكاملية على المدى العالمى، بحيث تكون تحتها قاعدة من قنوات استطراقية سالكة تحقق توزيع الأدوار وتبادل الكتلة العلمية والفنية والأرشيفية بينها، مما يحققه الكمبيوتر اليوم بسهولة، ويعين عليه عمل خاص شبيه بالإنترنت، وستقوم هذه الشبكة الخاصة بمضاعفة دورها عن طريق «التطفل» على الشبكة العالمية الواسعة من المعاهد المتخصصة ومراكز البحوث، السياسية

والإستراتيجية، وامتصاص رحيقها ونقله إلى الاستعمال الإسلامى، من تحليل سياسى واقتصادى، وإحصاءات، وتقارير نادرة، ووثائق مهمة، وكل ذلك متاح بطريق قانونى رسمى لا تقف دونه حواجز مانعة، إنما المانع الوحيد هو نقص هممنا، والكسل عن التفتيش والتتبع والرصد، أو هو نقصان وعينا التخطيطى، بحيث نستكثر أن نهب بعض إخواننا إلى هذا العمل البحثى، أو نبخل بصرف على ما يلزمهم من مال، ومن يتتبع الصحف العامة يجد أن كثيرًا من أدق التفاصيل وأعتى الأسرار يكشف وينشر، ولو رجعنا إلى الصحف الصادرة فى الأيام القليلة التى سبقت معركة الكويت لوجدنا أن الخطة العسكرية التى نفذها الجيش الأمريكى وحلفاؤه كانت أحد سيناريوهات ثلاثة متوقعة ونشرت بكل التفصيل، مع الإشارة إلى رجحان السيناريو الذى نفذ فعلاً وأنه أكثرها واقعية وانسجامًا مع حقائق الموقف، ومثل ذلك حدث يوم الجمعة قبل ثلاثة أيام من التوسع الإسرائيلى عام 1967م والذى يطلق عليه فى الإعلام العربى اسم النكسة، فقد نشر اللواء محمود شيت خطاب ﷺ المؤلف المعروف وأحد مشاهير القادة العسكريين فى العراق مقالاً طويلاً دلل فيه على أن قراءة الموقف ومعطيات الساحة تشير إلى «وجوب» قيام إسرائيل بعدوانها صباح اليوم الذى وقع فيه العدوان فعلاً، ودلل من خلال المنطق العسكرى على صواب رأيه، وأن إسرائيل لا تستطيع تقديم هجومها قبل ذلك، لعدم اكتمال النفير والحشد والاستعداد، ولا يمكنها تأجيل ذلك، لاحتمال فوات الفرصة، وأن تلك الساعات من صباح يوم الاثنين هى أوان الضرب الصحيح الناجح الذى يعلمه كل متمرس فى القيادة العسكرية. وبين هجمة إسرائيل ومعركة الكويت ربع قرن ملىء بمئات الأحداث الكبيرة والصغيرة التى نشرت الصحف عنها قبل وقوعها أخبارًا صحيحة وتوقعات دقيقة تدع الدعاة أقرب إلى صواب الموقف وأكثر تحكمًا فى ردود أفعالهم تجاهها إذا علموها، فكيف بتقارير وتحليلات تتداولها مراكز البحوث فقط وهى محجوبة عن الصحف لسبب من الأسباب؟ أو كيف بفلتات الألسن خلال الندوات والمحاورات والمحاضرات التى تعقدها هذه المراكز وعدم إطلاع الرأى العام عليها؟

وخلاصة مذهبنا التطويرى: أن الذى لا يجىء إليك: تعال إليه، كما يقول المثل العامى، فطبقة الدعاة الذين يعتريهم نوع نقص وضمور وعى ولكن قذفت بهم التخطيطات

الاضطرارية وسد الذرائع إلى مسئوليات عامة ومواطن صدارة، هؤلاء الدعاة «نذهب إليهم»، فنغذيهم بالوعى والأخبار والتحليل والإحصاء، ونلاحقهم بمفردات تطويرية عديدة الأنواع إذ هم فى أماكن أدائهم، عن طريق نشرات وأشرطة وكمبيوتر ومبتكرات أخرى، حتى يستوى ساذجهم واعيًا، ومترددهم مقتحمًا، ومرتجلهم مخططا، وعييهم فصيحا، وسائبهم مرتبطا، وظاهريهم قياسيا، وفوضويهم مرتبا، ومستبدهم مستشيرا، ومتهورهم حذرا، وتنشأ من مجموعة العلاقات التبادلية بينهم «معادلة» تتوازن بها كتلتنا الدعوية الممارسة فى الميدان العملى لقضايا الدعوة، ويحصل بها أمان من الانحراف أو الفتن أو المساومة على أصول الدعوة وثوابتها، ولو بقى شاذ لا يلين للمجموع ولا ينسجم مع الأداء فإن شذوذه وشذوذ أمثاله قد يؤثر فى صفاء الصورة، ولكنه لا يضر ولا ينخر، لغلبة العزائم وتجانس الأكثرين، وكلما حرصنا على هذه المنهجية فى التطوير وكررناها كانت الصورة العامة أنقى وأشد بياضا.

إذن ففى التطوير ومنهجية التربية الريادية الحل، ولكننا أهل إيمان، وعلى ذلك يجب أن لا نجرد كلامنا التطويرى الفكرى السياسى تجريدا، فإن ذلك يزيد أهل السلب سلبا، ويزيد من قسوة القلوب، وإذا قست القلوب ظهر التطاول والتحاسد واقتربنا من الفتن، ومن هنا تجب المواعظ وأحاديث الإيمان والدرجات والموت والقبر والجنة والنار، فى توازن بين الترغيب والترهيب والرجاء والخوف، هو ضرورى لظهور توازن آخر بين الأداء السياسى والتعبد الإيمانى، هو بدوره ضرورى لظهور «المعادلة» العملية فى الممارسة الدعوية الجماعية، وكل ذلك يلزمه بالتالى وجود قائد «شمولى»- له من كل خير نصيب؛ فهو فى الإيمان قدوة، وفى السياسة خبير، وفى الفكر أستاذ، وفى الفقه مجتهد، وفى الأخلاق سمح حليم جواد كريم- ليقوم بدوره الريادى فى حشد القلوب وتحريكها كمثل دوره فى إنماء العقول وإذكائها، وهذا ما يجعلنا فى النهاية نعود إلى بدء، وإلى تلقين، وإلى تلاوة، وإلى مكوث يومى فى زاوية ذات بركة، تحت طاق واطئ، فى مسجد عتيق، يكون منها الانطلاق إلى الصالونات السياسية، والحفلات الانتخابية الجماهيرية، وإليها نؤوب. بل النظر الفاحص يدلنا على أن قلة الوعى هى المشكلة الصغرى فى الذين ندفعهم إلى العمل العام والمحيط السياسى، وأن ضمور الروح وجفاف القلب هو مشكلتهم الكبرى التى تهيب بنا أن نؤسس أمرنا على تربية روحية مكثفة.

لكننا طالما قلنا إن من أخطر الأخطار أن نجعل قيادتنا فردية، تعتمد على أداء رجل منا موهوب عالى الصفات إن مات أو قتل فترت الهمم من بعده، وإنما نحرص على تكوين «الطبقة القيادية العريضة»، بعدد واسع، يؤدون الدور القيادى كلهم، كمجموعة متكاملة، يكمل بعضهم بعضا فى الصفات، ويعين بعضهم بعضًا فى الواجبات، والنجاح فى تكوين هذه الطبقة هو النجاح، وهو القرينة على استمرار التقدم نحو الهدف، وعلى الوراثة الأمينة، وعلى تصدير الوعى لمن يحتاجه من المسلمين.

وهكذا تمتزج الأهداف والحقائق والوسائل، وتتداخل تداخلا يمنعك أن تكون متعلقًا بسبب واحد، ناسجًا على منوال واحد، صابغًا بلون واحد، بل تطويرنا متشعب، وشعبه متشابكة، والتأثيرات متبادلة، وما أنت بالذى يستطيع الاقتصار، وما ينبغى لك، ومذاهب الأحادية عليلة كلها، وفى الشمول غنى وكفالة.

لكن أيا كان هذا التشعب فإنه يجب أن يظل دائرًا حول نقطة مركزية واحدة هى أساس المذهب القيادى الإسلامى، نسميها «العاطفة»، وهى كتلة من الأحاسيس الرقيقة، والمشاعر اللاهبة، ومعانى الإيمان، والرنو نحو الأخرويات، وتسكين الأفئدة بالطمأنينة كلما وجد القلق ثغرة للتسرب، فإن القائد المسلم ليس مدير شركة، ولا عميد جيش، ولكنه حادى قلوب، ونحن نخاف اليوم من هجمة الكمبيوتر والتقنيات الحديثة أن تحرف الأداء وتجفف منابع العاطفيات حتى تكون العلاقات ميكانيكية وتطغى العقليات والأرقام طغيانًا عارمًا يخل بالموازنة ويقطع أوتار الروح، وليس هناك علامات تحذرك إذا نزلت فقاربت الخطر، لكنه الانتباه الدائم وولوج أبواب المساجد، وفتح المصاحف، والوقوف بين قبرين... ليس إلا.

* * *